١٩ السيدة نفيسة «نفيسة العلم والمعرفة»

السيدة نفيسة رضى الله عنها ولدت قبل منتصف القرن الثانى للهجرة بخمس سنوات، وقد كان المسلمون وقتئذ أقوى أمم العالم، وإن كان قد أثر فيهم ماأصاب الإسلام من نكسة، مصدرها أن الدولة قد حادت عن نظام الشورى، فتحول نظام الحكم بها فى عصر بنى أمية من خلافة راشدة، إلى ملك عضوض، يتوارثه الأبناء عن الآباء..

وهذا ما كان يؤخذ عليهم - من قبل المؤرخين - برغم حفاظهم على البلاد التى دخلت حظيرة الإسلام من الصين شرقاً، إلى المحيط الأطلنطى غرباً، ومن الهند جنوباً إلى فرنسا شمالاً. ومن بعدهم جاء خلفاء بنى العباس، فكانوا أعظم قوة، وأبعد همّه، فقد امتازوا على الأمويين بأنهم لم يكن فيهم عنجهية تتجافى بهم عن الاستفادة من علوم ومعارف غيرهم، وتجعلهم يجمدون على ما ورثوه عن آبائهم، حتى لم تكد تظهر هذه الدولة العباسية إلاّ أخذت تعمل على أن يكون للدولة الإسلامية «عظمة» علمية تضاهى عظمتها السياسية، ففتحت أبواب التجديد فى العلم، والمعرفة، والفلسفة، على مصاريعها.. حيث نظرت بعين التقدير إلى ما كان عند الشعوب القديمة غير العربية من علوم وفلسفات ومعارف، فبذلت قصارى جهدها فى نقلها إلى اللغة العربية.. وقد ابتدأ ذلك فى عهد ثانى خلفائها أبى جعفر المنصور.. ليستمر فى عهد من أعقبوه من الخلفاء العباسيين. حتى جاء المأمون فأربى فى ذلك على مَنْ سبقوه، حيث أقبل على طلب العلم والفلسفة والمعرفة إقبالا يشهد له بالكثير من الفضل.

لقد أتحف الخليفة المأمون فى سبيل العلم والفلسفة والمعرفة ملوك القسطنطينية

بالهدايا النفيسة، وكانوا قد زهدوا فى علوم وفلسفات أجدادهم من اليونانيين، فأرسلوا إليه ما عندهم من كتب، اختار لها المأمون أشهر المترجمين، وأمرهم بنقلها إلى العربية، ليرغب الناس فى قراءتها، حتى تنتشر بين المسلمين، ويصيروا بعد ذلك أساتذة العالم فى هذه العلوم والفلسفات والمعارف. وذلك حين أصبحت لهم حضارة عربية إسلامية، وصلت إلى درجة من الكمال يوم استكملت فى هذا القرن ما كان ينقصها من العلوم والفلسفات والمعارف، وظهر فيها المشتغلون باللغة بجانب المشتغلين بالعلوم الدينية والأدبية التى كانوا قد برزوا فيها من قبل فى القرن الأول الهجرى.

هذه السيدة الفضلى ماذا عن ميلادها ونشأتها؟

مع بداية هذا العصر المزدهر بعلومه وسياساته وثقافاته ولدت السيدة نفيسة بمكة عام ١٤٥ هجرية، وتفتحت عيناها طفلة صغيرة على حقيقة باهرة، هى أنها تعيش فى رحاب ما تركه الجد الأعظم محمد ﷺ من قيم ومبادىء، وتعاليم وقواعد رفيعة سامية.. فأبوها الإمام حسن الأنور بن الإمام زيد الأبلج بن الإمام الحسن ابن الإمام على والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهم. هذا الأب الكريم النسب صار إماماً يتطاير اسمه بين أرجاء الأمة الإسلامية بما يحمل من الألقاب، وما يتصف به من صفات، فهو شيخ الشيوخ، وشيخ بني هاشم، وكبير آل البيت فى زمانه، والتابع العالم، والعابد الحكيم، والقطب المعلم.. الذى يتلقى عنه التلاميذ والمريدون العلم والفضل، وهو إلى جانب هذا المرجع الأخير الذى يرجع إليه حين يغيب عن الأذهان هدى الصحابه رضوان الله عليهم.

وطبيعى أن تدرك السيدة نفيسة الأحداث التى كانت تتعلق بمركز آل البيت فى نهاية عصر الدولة الأموية، وبداية الدولة العباسية.

كما أدركت عن قرب فترة الود والصفاء الإنتقالية التى قامت بين العلويين من آل البيت، وبني عمومتهم من العباسيين، أيام كان البيتان مُتَّحِدَيْن فى مواجهة خصمهم المشترك والذى يتمثل فى الأمويين.. وأدركت كذلك تنكر أبناء العم من العباسيين بعد أن سلس لهم قياد الخلافة الإسلامية، وأصبحوا يديرون أمور الدولة بدلا من الأمويين الذين صاروا ضعافاً، فلا حاجة إذن لبنى العباس لأبناء العم من

العلويين لمواجهة خصم بات ضعيفاً، بل إن الخليفة العباسى مع الأيام قد تحول إلى خصم لأبناء العم من العلويين.

ولقد سمعت هذه السيدة الفضلى فيما سمعت فى صباها الباكر أن العلويين وقد أصبح أمرهم كذلك ـ لم ينسوا أيضاً حقهم فى الخلافة بعد مأساة كربلاء، بل كانت الخلافة شغلهم الشاغل، يطلبونها بكل وسيلة، ومن كل قائم عليها، أموياً كان أم عباسياً ـ لدرجة أنهم إذا وجدوا الفرصة سانحة لإعمال القوة وتجريد السيف اغتنموها، حتى لايدعوها تمر، وإذا أنسوا فى نفوسهم ضعفاً استكانوا مكتفين بلقب الإمام، أو انتمائهم إلى بيت رسول الله ﷺ. . مفضلين الحياة الهادئة، والانصراف إلى الدين والعبادة والاعتكاف، عوضاً عن الاشتغال بالحرب والسياسة.

وأدركت السيدة نفيسة رضى الله عنها والدها الإمام حسن الأنور. . أدركته عن قرب، فأدركت مدى الحرج الذى كان يلاقيه، فقد كان من العلويين، غير أنه كان يرتبط بصلة المصاهرة مع العباسيين، حيث كانت أختها الكبرى أم كلثوم متزوجة من مؤسس الدولة العباسية «أبى العباس السفاح» كما ذكرنا من قبل، ولذلك اضطرته هذه المصاهره أن يكون غير بقية العلويين. حيث كان هذا الأب العلوى أول من لبس العمامة السوداء شعار العباسيين، وأنه كان يتعاون معهم، حيث تولى إمارة المدينة وعمره وقتئذ سبعة وستون عاماً من قبل الخليفة العباس أبى جعفر المنصور، وبقى على ولايته ست سنوات. إلا أن كل ذلك لم يشفع له عند هذا الخليفة نفسه، وذلك عندما اقتضى الأمر أن يسجنه بفعل مكيدة ففعل بعد أن أقصاه عن الولاية، وصادر أملاكه، متناسياً تماماً ما كان له من معاوية، وأنه صهر مؤسس دولتهم، وأنه من أبناء العم!!

كل ذلك لايهم لَدَى العباسيين إذا كان الأمر متعلقاً ببريق المنصب، ومكسب السلطة. . فلايهم أن يلقى القريب والنسيب والحليف فى غياهب السجون إذا كان ضد المصلحة الخاصة، فالعباسيون وقد استوت لهم مقاليد الأمور، ودانت لهم الدنيا ومن عليها، وحققوا من متاعها الشىء الكثير. . كانوا يتوجسون خيفة من العلويين، ويرصدون عليهم العيون. . يفعلون هذا مع كل علوى. . حتى ولو كان انساناً فاضلاً عالماً مسالما كالإمام حسن الأنور. ولعل ذلك له أسباب كثيرة، فى

مقدمتها بالطبع الإحساس بأنهم اغتصبوا حقا ليس لهم.. وأنهم إزاء هذا الاحساس لابد وأن يمحون أصحاب هذا الحق من الوجود.. حتى يستقر الأمر لهم.

فى هذا المناخ السياسى والاجتماعى المضطرب نشأت السيدة نفيسة وترعرعت، أو لعل اضطراب الأحوال قد أثمر نتيجة محورية فى بناء شخصية هذه السيدة الفضلى أصقل مداركها ومشاعرها فى وقت مبكر، يضاف إلى ذلك أنها فتحت عينيها على مظاهر التقى والإيمان. وفى الوقت نفسه سعة الرزق وبحبوحة العيش، والأكثر من ذلك أن تجد نفسها ضمن عشرات ينتمون إلى مدرسة أبيها الإمام حسن الأنور.. مدرسة تضم العلماء والمؤرخين على غرار ابن إسحاق راوى السيرة النبوية.. فى هذه المدرسة الأولى تلقت أمور دينها ودنياها، مما كان له كبير الأثر فى تكوين شخصيتها فيما بعد.

وإلى جانب كل هذه العوامل الخارجية المكونة لشخصيتها، ما فطرت عليه من ذكاء حاد، وذاكرة قوية، وفهم سريع، واستيعاب لكل ما يحدث حولها من أمور وأحداث.. كانت تسمعها وتدخرها فى حافظتها.. وقد عاونها فى ذلك تعلمها المبكر للقراءة والكتابة، فقد تعلمت ذلك وهى فى السابعة من عمرها، ولم يكن فى زمانها ولا بيئتها مَنْ تحقق له ذلك فى مثل هذا العمر، إذ كانت الأمية سائدة فى نطاق البنين، فما بالنا بالبنات!

كان القرآن الكريم هو أول ماتهتم به وتحفظه بقلب مفعم بحب معانيه، وكانت الأحاديث النبوية الشريفة هى أهم ما تستوعبه بعد القرآن. فأتت عليها تستوعبها وتدرسها بعاطفة خاصة، لعل مصدرها أن قائل هذه الأحاديث هو الجد الأعظم وكانت علوم ومعارف زمانها غير بعيدة عنها، وإنما متاحة لها، فأقبلت عليها بعقلية متفتحة فذة.. وكانت فى كل ذلك على إيمان مبكر بأن التفكير فريضة إسلامية، أقرتها آيات الكتاب الكريم، وأكدتها الأحاديث الشريفة. وأن للعلم فى كتاب الله وأحاديث نبيِّه مكانة جليلة.

وهكذا تمثلت السيدة نفيسة أول ما تمثلت طريقة أبيها فى الانصراف إلى العبادة،

والخلوص لله عز وجل، حتى قيل عنها أنه إذا كان بلال بن رباح رضى الله عنه قد شق أول طريق فى التصوف. فإن السيدة نفيسة كانت من السابقات اللائي شققن طريقهن إلى التصوف بين النساء.

فى هذه السن المبكرة كانت تقوم الليل وتصوم النهار، وتمعن فى عبادتها، وتزيد كلما نَما جسمها وعقلها.. وكأنها تستشعر لذة بما تفعل. وهاهى ذى أمام الكعبة، تتعلق عيناها بأستارها هامسة: «إلـهى وسيدى ومولاى، منعنى عجزى وضاعف فرحتى برضاك عنى، فلا سَبَبَ لى أتسببُ به يحجبك عنى». قد يدرك القارىء هنا مدى نضجها العقلى والوجدانى الذى أصابته مبكراً فى هذا الدعاء الحار الذى إنْ دل على شىء فإنما يدل على الإيمان فى سلوكها مع الخالق.

وهكذا كان حال السيدة نفيسة فى «أم القرى»، حتى إذا انتقلت إلى المدينة المنورة بصحبة أسرتها تضاعف إيمانها، وهى لم تزل بعد فى العشرين ربيعاً، وعلى هذا يمكن القول ـ اتفاقاً مع العلماء والمؤرخين ـ بأن هذه السيدة الفضلى قد سارت فى طريق الله عبر مدرستين عظيمتين: الأولى فى مكة، والثانية بالمدينة المنورة.. لتأتيه العلوم والمعارف من كل صوب وحَدْب. وها هو ذا أبوها الإمام حسن الأنور يصحبها مرات إلى قبر الجد الأعظم ـ كما تذكر الروايات ـ ويردد: «يا رسول الله، إنى راضٍ عن ابنتى نفيسة». ثم يرجع. ومازال يفعل هذا حتى رأى فيما يرى النائم رسولَ الله ﷺ يأتيه فى منامه ويقول له: «يا حسن، أنا راضى عن ابنتك برضاك عنها، والحق سبحانه وتعالى راضى عنها برضاى عنها».

وفى المدينة يتصدر الإمام مالك بن أنس وقتئذ مجالس العلم، التى تجمع صفوة العلماء، ومن بينهم السيدة نفيسة، التى تتلقى ما لا تعرفه طيلة أربعة عشر عاماً قضتها فى رحاب هذا العالم الجليل حتى توفى، فيتحقق لها الحُسنيين معاً: شرف العلم، ومن قبله شرف النسب. وتستمر فى طريق العلم والمعرفة، وفيَّة لهما، حتى يصبحا ركيزة تُضاف إلى ركيزة عبادتها وصلاحها وتقواها.

ومع الأيام يزداد نضجها العقلى، ومعه تزداد محبتها للذات الإلـهية، وتُخلص فى هذا الحب فى خشـوع وخضـوع، وتبعد نفسها عمَّا نَهَى الله ورسوله، وتطهر

نفسها من كل شائبة مما يشين أفعال البشر، وتزهد فى هذه الدنيا التى تُبنى على الصراع والشرّ، وتُقبل على العبادة فى اعتدال وتعقل، جاعلة حياتها مرحلة تزود آخرتها بالعمل الطيب المثمر، فلا تقعد ولا تتواكل، بل تعمل لدينها ودنياها، فكانت بحق نعم المرأة العابدة العاملة الزاهدة. المرأة التى لاتنسى الأخذ بحقها المقسوم فى حياة أحلّ الله سبحانه وتعالى طيباتها لعباده المخلصين.

حتى أنه حين يتقدم لخطبتها ابن عمها «إسحاق ابن الإمام جعفر الصادق» رضى الله عنهما.. ترضى به خطيباً، وتحفظه زوجاً، وتعيش معه مُحبة، وتصبح دارهما فى المدينة المنورة ـ ثم فى مصر بعد ذلك ـ ملتقى للعُلماء، وكعبة لأعلام عصرها ممن عرفوا عنها أنها بحق «نفيسة العلم والمعرفة».

ومن المدينة المنورة انتقلت السيدة نفيسة وزوجها إلى مصر، ليلحق بهما والدها الإمام حسن الأنور رضى الله عنه بأربعة أشهر.. ولعلها اختارت هذا البلد الأمين طلباً للهدوء والاستقرار، بعيداً عمّا يذكرهم من خلافات وصراعات، عاشوا فيها زماناً.. صراعات وخلافات كانت لا تزال ماثلة فى الأذهان حتى وإنْ بعدت السّنون وتغيرت الأحوال.

وتجد فى مصر وشعبها ما لم تجده فى غيرها من البلدان. لقد أحب هذا الشعب الكريم هذه السيدة الطاهرة.. أحبها قبل أن يراها.. حين سمع بعلمها وفضلها وتُقاها وهى بمدينة الرسول. حيث كان الحجاج المصريون ينقلون أخبارها، فلما اختارت مصر مستقراً، وشعبها أهلاً، استُقبلت بكل حفاوة وتكريم منهم، حتى إذا استقرت بينهم تحقق لهم ما كانوا يسمعونه عنها، فازدادوا تعلقاً بها، ومن ناحيتها قابلت هذه المشاعر الصادقة بأفضل منها، برغم ماكان يساورها من قلق، خوفاً من أن يسىء بنو العباس فَهْمَ ذلك، فيفسدون عليها رضاً كانت تفتقده.

لقد رأى الشعب المصرى فى السيدة نفيسة ـ كما يذكر الأستاذ محمد شاهين حمزة ـ آماله الروحية تتحقق. فأقبل عليها إقبال الظمآن إلى الماء العذب. واشتد إقبالهم وتزاحمهم على بابها، حتى عاقها ذلك عمّا نذرت نفسها له من العبادة والعلم، وصبرت فترة، حتى إذا طالت راودتها فكرة العودة إلى حيث جاءت،

فصحيح أنها أحبت هذا الشعب، ولكنها تحب الله أكثر، وتود أداء فرائضه وتقوم بعبادته خير قيام .

وحين ترامَى إلى الشعب المصرى نبأ عزمها على الرحيل، فزع إلى واليه من قِبَل الخليفة العباسي المأمون، ولم يَتَوانَ هذا الوالى عن التوجه إلى السيدة نفيسة طالباً منها البقاء بمصر، نزولاً على رغبة أهلها، فقالت له : «إنى جئت مصر بنية الإقامة الدائمة حتى الموت، وأن أدفن فى تربتها.. إنى امرأة ضعيفة، وأرى الناس قد تكاثروا علىَّ تكاثراً فاق طاقتى، وشَغَلَنِى عن زادى لمعادى.. ومكانى هذا صغير قد ضاق بالجموع الوافدة».

فقال لها الوالى: إنى سأزيل جميع ما تشكين منه لتبقى فى مصر.. وسأهيئ لك الأمر على الوجه الذى ترضين به.

وبالفعل يَسَّرَ لها مكاناً أفضل، ومن جانبها خصصت يومين فى الأسبوع تلتقى فيهما بالوافدين عليها، وطاب لها المقام بمصر.. ولم يكن موقفها من الشعب المصرى الملتف حولها سلبيّاً، بل كان إيجابياً إلى حد بعيد.. حيث أعطته مِمَا أفاض الله عليها من فضل، فَنَهِلَ من مجالس العلم التى كانت تعقد فى دارها، ومنحته صدق الدعوة إلى الله تعالى، وجمال التوجيه والإرشاد بخير الدنيا والآخرة، وقدمت من نفسها أنموذجاً متكاملا لما تكون عليه المرأة المسلمة المنتسبة إلى أشرف الخلق.. وهكذا ظل حبها باقياً فى مصر يتوارثه الأبناء عن الآباء فى حياتها أو بعد مماتها منذ وَطِئَتْ أقدامها أرض مصر إلى اليوم.

ومع مسئولياتها التى تجددت بمصر كانت تحافظ على تأدية شعائر الحج فى كل عام، حتى بلغ مرات حجها أكثر من ثلاثين مرة. فى بعضها كانت تتعمد المشى على أقدامها.. كما كانت تحافظ على عبادتها بصورة منتظمة، حتى قالت عنها ابنة أخيها زيد: «قمت بخدمة عمتى أربعين عاماً، فما رأيتها نائمة الليل ولا أفطرت النهار.. ولقد قلت لها ذات مرة أما ترفقين بنفسك ياعمتاه؟ فقالت كيف أرفق بنفسي وأمامى عقبات لا يقطعها إلاَّ الفائزون».

ولعلها فى ذلك كانت تتمثل جدها العظيم الإمام علىّ كرَّم الله وجهه.. حيث

كان يقول: «يا دُنيا غُرِّى غيرى.. إلىَّ تعرضت، أم إلىَّ تشوفت؟! لقد باينتُكِ ثلاثاً لارَجْعَةَ فيها، فعمرك قصير، وخطرك حقير. آه من قلة الزاد وبُعد السفرَ ومشقة الطريق!!». مشيراً إلى الدنيا التى هى طريق إلى الآخرة وما فيها من الأهوال.

ولعل شخصية السيدة نفيسة تبدو من أحاديثها وأقوالها، تلك التى سجلها مؤرخوها، ونقلها الخَلَفُ عن السَّلف لتبقى على مر القرون خير شاهد وأصدق دليل على عظمة خلود هذه السيدة الطاهرة.. فهى حين تتضرع إلى الله عز وجل بالدعاء تقول: «اللهم يا مَنْ عَلاَ فقدر، ومَلَكَ فَقَهَر.. أجْبُر من أمَتكَ ماانْكَسَرَ» فى هذا الدعاء نلمح رصانة عبارتها، وهو ما ورثته من بيئتها العربية ونسبها الكريم.. كذلك نلمح نظرتها الثاقبة إلى أحوال الدنيا وما فيها من متاع الغرور، حيث تقول: الدنيا كلها مرارة، فإنْ كانت بها حلاوة فهى حلاوة الإيمان، ونلمح أيضاً جانباً من شخصيتها، حيث توجه المسلم إلى أنه ليست الصلاة ـ وهى صلة العبد بربه ـ بكثرة عدد الركعات، إنما الأفضل أن تتحقق هذه الصلة حتى وإن كانت ركعتين وتقول: «إن ركعتين فى الصلاة فيهما الصّلة المطلوبة فى الصلاة بين العبد وربه خير من ألف ركعة تجردت منها».. ثم إنها وقد أُتيح لها قسط وافر من العلم والمعرفة.. نراها تقول: «إن الإسلام غنى بتعاليمه عن الفلسفات الأخرى» هذا القول منها يدل على اطلاعها على هذه الفلسفات واكتشافها نواحى النقص والقصور فيها، وهو ما لا يتسنى إلا لعقلٍ استوعب المعارف المتباينة، ثم قارَنَ بينها.

ولعل إيمانها وصبرها وقوة عزيمتها يتجلى جميعه فى إصرارها على مواصلة الصوم، حتى وإن كان يقضى عليها.. وتقول لمن يطلب منها إفطاراً رفقاً بها: «واعجباً.. لى ثلاثون سنة أسأل الله عز وجل أن يتوفانى وأنا صائمة. وأفطر؟! معاذ الله».

وسيدة على هذا النحو من العلم والفضل، والتقى والصلاح.. لابد أن تكون قِبْلَةً لأعلام عصرها من العلماء، وفى مقدمتهم الإمام الشافعى الذى كان يزورها، وكانت تستقبله وتفيض عليه، وتناقشه فى كثير من جوانب الفقه وأصول

العبادة. . ولم ينقطع عن زيارتها والاستزادة بفضلها إلا يوم أن اختاره الله إلى جواره. وكانت من المشيعين له.

وقصدها الإمام أحمد بن حنبل حيث التقى بها حين كانت تعود مريضاً من طلاب مجلسها العلمى، ويومها طلب منها صالح الدعوات، وكان يحرص على اللقاء بها كلما سنحت ظروفه فى مصر أو فى الحج.

ويروى أنها شهدت فى آخر حياتها ظلم أحد حكام مصر آنئذٍ. وبلغها من ظلمه وصوره حيث جاء أهل مصر متوسلين أن تتشفع لهم عنده حتى يرفع عنهم مظالمه. . فسألتهم أوقات وأماكن خروجه فعرفوها. . فما كان منها إلا أن استوقفت موكبه ونادته باسمه مجرداً. فاستجاب لها مترجلاً عن جواده واتجه إليها وهو يرتجف، فقالت له: «ملكتم فأسرتم، فكان منكم الجور والعسف، وقطع الأرزاق، وقد علمتم سهام الأسمار نافذة غير مخطئه لاسيما الصادر منها من قلوب أوجعتموها، وأكباد أذقتموها قسوة الجوع، ومحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، فاعملوا ماشئتم، فنحن صابرون، وسيعلم الذين ظلموا أى مُنْقَلَبٍ ينقلبون».

وهنا ارتعد الحاكم الظالم، وأقبل على السيدة نفيسة يترضاها ويعدها بأن يصلح كل شىء.

ومرت الأعوام والسنون، وعندما أخذ الوهن يدب فى أوصالها تخيرت لنفسها قبرها فى المكان الذى كانت فيه دارها، وفى نفس الحجرة التى عاشت فيها بقية حياتها بمصر، وحفرت قبرها بنفسها ونزلت إليه، وصَّلت فيه مرات. . حتى إنه قيل بأنها قرأت القرآن الكريم بأكمله عدة مرات فى هذا القبر الذى أحبته إلى درجة أنه كان يطيب لها المقام فيه أحياناً ساعاتٍ طوالاً.

ولما أحست السيدة نفيسة رضى الله عنها بقرب نهايتها، راحت تستعد لذلك، وتقرأ سورة الأنعام. وراحت تستعيد آياتها فى ضراعة وتبتل، حتى إذا ما وصلت إلى قوله تعالى:

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1]

فاضت روحها الطاهرة إلى بارئها عن عُمر يناهز ثلاثةً وستين عاماً، لتُدْفَنَ فى القبر الذى أعدته بنفسها، والذى يقام عليه الآن ضريحها داخل مسجدها بالقاهرة. وحزن لموتها أهلُ مصر أجمعون. وكان يوم وفاتها من الأيام المشهودة فى ذلك العصر البعيد.

* * *

(١) سورة الأنعام ـ الآية ١٢٧.